مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية و آدابها،
فصلية محكمة، العدد الـ٣٥، صيف ١٣٩٤ هـ.ش/
٢٠١٥ م؛ صص ٢١-١

التطابق بين السارد والمؤلف والشخصية المركزية في سيرة «حياتي» الذاتية لأحمد أمين

سيد ابراهيم آرمن*[١]، مريم اكبرى موسى‌آبادى[٢]
١. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية في كرج
٢. أستاذ مساعد فى قسم اللغة الفارسية وآدابها بجامعة ارومية
تاريخ استلام البحث: ٩٣/٠٦/١٧ تاريخ قبول البحث: ٩٤/٠٢/٠٨

الملخّص

من الموضوعات المثيرة للجدل في السيرة الذاتية هي أنه هل المؤلف استطاع أن يقلّل المسافة بين الثلاثة: هو بنفسه، والسارد والشخصية المحورية وبعبارة أدقّ هل تمكّن من التطابق بين هذه المكوّنات الثلاثة؟ بالتأكيد يوجد فارقٌ كبيرٌ بين رؤية المؤلف الحاضرة إلى الأحداث الماضية وبينها عند وقوع تلك الأحداث، وهذا يمكن أن تُختبر به مهارة المؤلف المبتكرة. في المقالة الحاضرة نريد أن ندرس هذا الموضوع في السيرة الذاتية لأحمد أمين. يدلّ ما وصلت إليه هذه الدراسة على أن المؤلف بما أنه قد أعطى عناية بالغة للبحث عما تكوّنت به شخصيته الحاضرة فقام بتفسير الأحداث من وجهة نظره أكثر من حكايتها انطلاقاً من رؤية الشخصية فقلّما نجح في تضييق المسافة بين الرؤيتين للسارد والشخصية. نظراً إلى أن الرؤية بوصفها عنصراً قصصياً هامّاً تساعدنا في هذا المجال كثيراً فالآراء الجينيتية هي التي نعتمد عليها في هذه الدراسة.

الكلمات الرئيسة: السيرة الذاتية؛ السارد؛ المؤلف؛ الشخصية المركزية؛ أحمد أمين؛ حياتى.

المقدمة

تظلّ السيرة الذاتية أكثر الأنواع والأجناس الأدبية إثارة للبلبلة الإجناسية والهوية الأسلوبية؛ فلانستطيع أن نصل إلى رأي محدّد بين الآراء التي أظهرها الدارسون والكتّاب في هذا المجال. فالسؤال الذي لايزال يشغل بال المنظّرين به هو أنه هل يمكن أن نعتبر السيرة الذاتية جنساً أدبيّاً مستقلاً وقائماً بذاته؟ البعض يجد الحلّ في اللجوء إلى نظرية التداخل بين الأجناس الأدبية؛ فالسيرة الذاتية من الأجناس التي يمكن أن تدخل فيها أجناس أخرى كالمذكرات، واليوميات،

* الكاتب المسؤول Shams1516@yahoo.com

والسيرة، والرواية الشخصية. على أى حال «السيرة الذاتية ليست إلا شكلا من أشكال السرد. وككل أشكال السرد، للسيرة الذاتية مؤلّف يكتبها وسارد يسردها وقارئ فضوليّ يقرؤها» (الباردي، ٢٠٠٥م: ٤ و ٥٨).

ويمكن أن يكون الحدّ التالي لهذا الجنس الأدبي من أحسن الحدود الجامعة المانعة: «حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركّز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة» (لوجون، ١٩٩٤: ٢٢).

إذا بحثنا عن جذور للسيرة الذاتية وصلنا إلى ما كان شائعا في الثقافة الغربية من تعرية النفس طلباً للعفو والمغفرة وهذه السنّة الغربية انتهت إلى ما يسمّى بأدب الاعترافات وبلغ ذروتَها جان جاك روسو في اعترافاته التي أصبحت اللبنة الأولى للسيرة الذاتية في فرانسا في القرن الثامنعشر وفي الأدب العربي الحديث يعدّ **الأيام** لطه حسين في عشرينات القرن العشرين أول سيرة ذاتية ظهرت بمعناها الاصطلاحي.

وأما **الدارسات السابقة** في مجال السيرة الذاتية؛ فمن المصادر الهامّة التي يُعتمد عليها في البحث عن هذا الجنس الأدبي كتاب **السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي** لفيليب لوجون[1]. ثم هناك مقالة تحت عنوان «السيرة الذاتية وملامحها في الأدب العربي المعاصر» (آرمن، ١٣٩٠ش: ٢٣-٩). حيث بإمكان القارئ في هذا المقال أن يحصل على معلومات في مجال ملامح السيرة الذاتية وتطورها التاريخي؛ إذ هذه الدراسة تقرأ ملامح هذا الفن اعتمادا على أهمّ الكتب التي تطرقت إلى هذا الموضوع قراءة متأنّية. وهناك توجد مقالات وكتب كثيرة قد درست السيرة الذاتية إلا أن ما يدخل في إطار المقالة الحاضرة لايتجاوز أصابع اليد ومن أهمّ هذه الدراسات يمكن أن نشير إلى **عندما تتكلم الذات** لمحمد الباردي الذي استفدنا منه في دراستنا هذه كثيراً وسيرة **حياتي** لأحمد أمين وإن لفت بالَ كثير من الباحثين إلا أنهم لم ينظروا من وجهة النظر هذه . أي التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية. إلى الكتاب فالمقالة امتازت بجدّة الموضوع.

ومن الأسئلة التي يمكن طرحها في دراسة **حياتي** هي أنه:

□ هل المؤلف نجح أن يقرّب المسافة بين السارد والشخصية المركزية؟

١. فيليب لوجون: الإنشائي الفرنسي والمرجع العالمي الأول في دراسة السيرة الذاتية.

□ صوتُ من يُسمع أكثر؟ الشخصية أو السارد؟

□ هل الرؤية اتّسعت باتساع وعي الشخصية مروراً بالمراحل المختلفة طوالَ الحياة أو إن الرؤية في حياتي لا تخضع لقاعدة خاصة؟

التطابق بين السارد، والمؤلف، والشخصية المركزية . الميثاق السير ذاتي

يشكّل مفهوم التطابق عند لوجون أحد الشرطين الأساسين في السيرة الذاتية اللذين لا يمكن الإخلال بهما أو حتى بأحدهما إذا ما أردنا التمييز الدقيق بين السيرة الذاتية وبين غيره من الأنواع الأدبية (هياس، ٢٠٠١: www.awu.sy). فلكي تكون هناك سيرة ذاتية لابد من التطابق بين ثلاثة أنواع من الأنا؛ أنا كمؤلّف وكسارد وكشخصية محورية.

فالتطابق بين السارد والشخصية الرئيسة غالباً ما يتحدد من خلال استعمال ضمير المتكلم وقد يوجد عكس هذا الموضوع عندما يتطابق السارد والشخصية الرئيسة دون استعمال ضمير المتكلم، فكيف يمكن الوصول إلى معيار أو قاعدة للثقة بهذا التطابق وهو أساس السيرة الذاتية لكونها سيرة ذاتية؟

يجب أن نميز بين معيارين مختلفين: معيار الضمير النحوي ومعيار تطابق الأفراد الذين تحيل عليهم مظاهر هذا الضمير. فيمكن أن يكون هناك التطابق بين السارد والشخصية الرئيسة في حالة الحكي بضمير الغائب ويتم هذا التطابق بطريقة غير مباشرة عن طريق المعادلة المزدوجة: المؤلف = السارد، والمؤلف = الشخصية، الشيء الذي نستنتج منه أن السارد = الشخصية (لوجون، ١٩٩٤: ٢٥ و٢٦). والمثال البارز في هذا المجال في الأدب العربي كتاب **الأيام** لطه حسين الذي اتخذ من ضمير الغياب صوتا سردياً ناطقاً وهذا عسّر علاقة التطابق بين الأطراف الرئيسة الثلاثة وهي السارد والمؤلف والشخصية، إلا أن المؤلف في الفصل الأخير من الجزء الأول يرفع القناع من السارد ويكشف عن وجهه فيخاطب السارِدُ ابنتَه وهي في التاسعة من عمرها:

«إنّك يا ابنتي لساذجة سليمة القلب، طيّبة النّفس، أنت في التّاسعة من عمرك، في هذه السنّ الّتي يعجب فيها الأطفال بآبائهم وأمهاتهم...» (حسين، ١٩٩٢: ١١٧).

ثم يواصل ويشبّه نفسه بأوديب الملك الذى فقد عينيه. فمثل هذه الإشارات في هذا الفصل

من الجزء الأول للكتاب تدلّ على وجود العلاقة الممكنة بين السارد والشخصية والمؤلف، فالعملية المنطقية التي يمكن أن نصل بها إلى هذه العلاقة تظهر الإبنة ابنة الشخصية المحورية وابنة السارد في الوقت نفسه؛ فالسارد هوالشخصية المحورية (السارد = الشخصية) وإذا كان المؤلف .كما نعلم ذلك من خارج النص . هو طه حسين الذي فقد بصره منذ طفولته . فـ السارد = المؤلف = الشخصية.

إلا أن ضمير المتكلم المفرد بما أنه يحيل على الذات مباشرة ويقلل المسافة الفاصلة بين السارد والشخصية المحورية هو الذي يهيمن على السيرة الذاتية باعتبارها نوعاً من أدب الذات، ويسمح للسارد من النوع السير ذاتي أن يتحدث باسمه الخاص أكثر مما يسمح للسارد المحكي بضمير الغائب وذلك بسبب تطابقه بالذات مع البطل (مجموعة مؤلفين، ١٩٨٩: ٦٧).

يؤكّد عبدالملك مرتاض على قدرة هذا الضمير على إذابة الفروق الزمنية والسردية بين السارد والشخصية والزمن جميعا لاستحالة السارد إلى شخصية كثيرا ما تكون مركزية وهو يورد جملة من الخصائص لهذا الضمير تتلاءم مع طبيعة النص السيرذاتي.

١. إن هذا الضمير يجعل الحكاية المسرودة مندمجة مع روح المؤلف ويلغي ذلك الحاجز الزمني الموجود بين زمن السرد وزمن السارد، فيبدو الزمن السردي وحيداً مندمجاً بحكم أن المؤلف يغيب في الشخصية التي تسرد عمله.

٢. يجعل ضمير المتكلم المتلقيَ يلتصق بالعمل السردي متوهماً أن المؤلف، فعلا، هو أحد الشخصيات التي تقوم عليها الحكاية، فكأن السرد بهذا الضمير يلغي دور المؤلف بالنسبة إلى المتلقي الذي لا يكاد يحسّ بوجوده وهذا الإحساس لايصاب به المتلقي عند السرد بضمير الغائب الذي يمكن للمؤلف أن يظهر وهو يعرف كل شيء.

٣. ضمير المتكلم يحيل على الذات وأما ضمير الغائب فيحيل على الموضوع. فـ «الأنا» مرجعيته جوّانية بينما «الهو» مرجعيته برانية. يوجد فرق بين ضمير يسرد ذاته وضمير آخر يسرد غيره.

٤. إن ضمير المتكلم. وهو ضمير لسرد مسمّى بالمونولوج الداخلي. يمتلك القدرة على التوغل في أعماق النفس البشرية فيعريها بصدق ويكشف عن نواياها ويقدمها إلى القارئ كما هي لا كما يجب أن تكون (مرتاض، ١٩٩٨: ١٥٩).

إلا أن ضمير الغائب يأتي بعد ضمير المتكلم في السرد السيرذاتي. فهذا الضمير يوحي بوجود

فاصلة بين السارد والبطل، فقد أسلفنا أن التطابق المفترض يتم حصوله في السيرة الذاتية بضمير الغائب بطريقة غير مباشرة.

إذن يمكن القول إن ضمير المتكلم المفرد يتيح للمترجم لذاته إمكانية تحقيق التطابق بين المؤلف والشخصية والسارد بصورة مباشرة وأما ضمير الغائب فيتمّ فيه التطابق بطريقة غير مباشرة.

إلا أن استعمال ضمير المتكلم أيضا لايؤدي إلى التطابق التام بين السارد والشخصية الرئيسة في النص السيرذاتي؛ يرى جيرار جينيت أن هناك في كل نص سيرذاتي مسافة فاصلة بين أنا الساردة وأنا المسرودة (=البطل)، أي أن التطابق التام بين السارد والشخصية المحورية لا يوجد حتى في النص السيرذاتي؛ لأن السارد يعرف أكثر مما تعرفه الشخصية فالأول يختلف عن الثانية في السن والتجربة وهذا يسمح له أن يتفوق عليها علماً بالأحداث (جينيت، ١٩٩٧: ٢٦٢). فحينما يكتب مارسيل: «رأيت رجلاً في الأربعين، طويلا جدا، وبدينا بما فيه الكفاية، بشاربين جد سوداوين، كان، وهو ينفض بعصبة سرواله، يركز على عينين واسعتين من فرط الانتباه». فهنا يجب ألا نتصور أن السارد وهو يصف رجلاً مجهولاً رآه قبل عشر سنوات لايزال لايعرفه، فهو (=البطل) لم يعرفه قبل عشر سنوات إلا أنه بعد انقضاء هذه المدة أصبح رجلاً ناضجاً (=السارد) يعرف أكثر من البطل وإن هو نفسه (مجموعة مؤلفين، ١٩٨٩: ٦٤).

فمضيّ زمن طويل بين وقوع الأحداث وزمن الكتابة في النص السيرذاتي يجعل السارد يعرف أكثر من الشخصية. إلا أنه من الكتّاب السيرذاتيين من يخفون معرفة السارد عندما يسرد الحكاية التي تكون فيها الشخصية موضوعاً فيحترمون جهل الشخصية ويراعون تطور أفكاره كما نجد عند مارسيل بروست في روايته الشهيرة **البحث عن الزمن الضائع** (*المصدر نفسه:* ٦٨).

فنلاحظ عدم قابلية الضمير النحوي على تحقيق التطابق والحسم في انتماء نص ما إلى جنس السيرة الذاتية فلا يبقى أمامنا إلا أن نتجاوز الضمير إلى عنصر ثانٍ لا يمكن في غيابه أن نصل إلى التطابق بين هذه الأركان الثلاثة ألا وهو اسم العلم (اسم المؤلف) المذكور على غلاف الكتاب وعلى الصفحة الأولى فوق عنوان المؤلف. «ويتلخص، في هذا الاسم، الوجود التام لما نسميه بالمؤلف: العلامة الوحيدة في النص لخارج ـ نص لا ريب فيه، التي تحيل إلى شخص واقعي، يطلب بهذه الطريقة أن ننسب إليه، في آخر المطاف، مسؤولية تلفظ النص المكتوب برمته. وفي

كثير من الحالات يختزل وجود المؤلف داخل النص، في هذا الاسم فقط... وأقصد بهذه الكلمات... شخصاً وجوده مؤكد من طرف الحالة المدنية وحقيقي» (لوجون، ١٩٩٤: ٣٤).

إذاً ميثاق السيرة الذاتية هو تلك العقدة التي يبرمها المؤلف مع القارئ لغاية التأكيد على التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية والرجوع بكل شيء إلى الاسم الشخصي المكتوب على الغلاف (بحراوي، ١٩٨٤: ٤٤). وبالاجمال يمكن أن نلخص الطريقين لتحقيق تطابق الاسم بين الأطراف الثلاثة في النص السيرذاتي:

□ **الطريق الضمني** (على مستوى العلاقة بين المؤلف والسارد، بمناسبة ميثاق السيرة الذاتية):

- استعمال عناوين لا تترك أي شك حول كون ضمير المتكلم يحيل إلى اسم المؤلف (قصة حياتي، سيرتي الذاتية، الخ).
- مقطع أولي للنص يتحمل فيه السارد التزامات أمام القارئ وذلك بالتصرف مثل المؤلف، بطريقة تجعل القارئ لا يحمل أي شك حول كون ضمير المتكلم يحيل إلى الاسم القائم على الغلاف، وإن كان هذا الاسم غير وارد في النص.

□ **الطريق الواضح** يشتمل مستوى الاسم الذي يأخذه السارد ـ الشخصية في المحكي نفسه، والذي هو نفس اسم المؤلف المعروض على الغلاف (لوجون، ١٩٩٤: ٣٩ و٤٠).

ورغم ما أسلفنا يحتاج التطابق بين الشخصية والسارد والمؤلف ـ وهذا يعدّ ميثاق النص السيرذاتي ـ إلى دقة أكثر في السرد الذاتي. بعد أن أبرم المؤلف الميثاق السيرذاتي مع القارئ ووظّف ضمير المتكلم بوصفه ضميراً محيلاً على الذات دالّاً على التطابق السيرذاتي أكثر من الضمائر الأخرى فيقوم بسرد تجربة حياته. فالمؤلف هو السارد والسارد هو الشخص الذي عاش هذه التجربة. إلا أن السارد وهو الشخصية في آن يسرد في الزمن الحاضر والشخصية المركزية بالطبع ـ عاشت التجربة في الزمن الماضي. فالفارق الذي يهتمّ به جيرار جينيت في مبحث المنظور السردي بين السؤالين «من السارد؟» و«من الشخصية التي توجه وجهةُ نظرها المنظورَ السردي؟» أو بعبارة أوجز: «من يرى؟» و«من يتكلم؟». يكاد هذا الفارق تزداد أهميته عندما يطرح في السرد الذاتي. فمع هذه التفاصيل أين الموقف الذي يتخذه السارد في المقام السردي أو المحكي؟ هل هو يعرف

أكثر من الشخصية أو لا يسرد إلا ما تعرفه الشخصية؟ فللوصول إلى الإجابة يجب أن نفكك بين الرؤيتين أو البؤرتين السرديتين اللتين أسماهما جيرار جينيت تبئيراً. مع أنه كان قائلاً بثلاث حالات من التبئير إلا أن السيرة الذاتية لطبيعتها السيرية ترفض واحداً من هذه الثلاثة. فها هي التبئيرات الجينيتية سنأتي بها بالمقارنة مع التصنيفين الآخرين لبويون وتودروف (مجموعة مؤلفين، ١٩٨٩: ١١٥).

جينيت	بويون	تودروف
التبئير في درجة الصفر	الرؤية من الخلف	السارد يعرف أكثر مما تعرف الشخصية (السارد>الشخصية)
التبئير الداخلي	الرؤية مع	السارد يعرف نفس ما تعرفه الشخصية (السارد=الشخصية)
التبئير الخارجي	الرؤية من الخارج	السارد يعرف أقل مما تعرفه الشخصية (السارد<الشخصية)

والحكاية بالنمط الأول يسمّيها البعض الحكاية ذات السارد العليم، والثانية الحكاية ذات وجهة النظر أو ذات الحقل المقيد، والثالثة تُحكى بالسرد الموضوعي أو السلوكي ونظراً لأن مصطلحات كالحقل والرؤية ووجهة النظر لها مضمون بصري مفرط الخصوصية فوظّف جينيت مصطلح التبئير أكثر تجريداً في هذا المجال (جينيت، ١٩٩٧: ٢٠١). يقصد جينيت من التبئير تضييقاً في حقل الرؤية بالمقارنة مع المعرفة الكلية للسارد، لأن للسارد، وله وحده الحق في أن يحكي الحكاية، سواء حسب وجهة نظره الخاصة، أو انطلاقاً من وجهة نظر إحدى الشخصيات، أو حسب وجهة نظر حكائية غير محددة. فإذا انطلق السرد من وجهة نظر غير وجهة نظر السارد يعني هناك تضييق في حقل رؤية السارد وهذا التضييق عبّر عنه جينيت تبئيراً (مجموعة مؤلفين، ١٩٨٩: ١١٣). والتضييق في حقل الرؤية يتمّ عملياً بالانتقاء للمعلومات السردية وإذا انطلق السرد من وجهة نظر السارد (التبئير في درجة الصفر) فهذا يعني رغبة إرادية في اللاانتقاء أي لا وجود للتبئير وهذه الحالة كثيرا ما تمثله الحكاية الكلاسيكية فمثل هذه الحكاية بالتبئير في درجة الصفر هي حكاية غير مبأَّرة. في التبئير الداخلي يتطابق المأوى البؤري ـ الذي يتحدث عنه جينيت ـ مع وعي الشخصية. فالسرد يتم تبئيره على الشخصية أي يصفى عبر وعيها. «ولابد من الإشارة أيضا إلى أن ما نسميه تبئيراً داخلياً قلما يطبَّق بكيفية صارمة تماما. وبالفعل، فمبدأ هذه الصيغة

السردية بالذات يستتبع استتباعاً صارماً تماماً ألّا يصف السارِدُ الشخصية البؤريّة أبدا، ولا حتى أن يشير إليها من الخارج، وألا تحلل أفكارها أو ادراكاتها تحليلاً موضوعيا أبدا» (جينيت، ١٩٩٧: ٢٠١ و٢٠٣) وما هو جدير بالاهتمام أنه يجب ألا يؤدّي مثل هذا النوع من الرؤية إلى أن نخلط بين مقام التبئير ومقام السرد فهذان المقامان كما أسلفنا يتمايزان وإن اضطلع شخص واحد بهذين المقامين؛ فالتطابق بين السارد والبطل شيء واختلاف مدى معرفتهما بالأحداث . فالسارد يكاد دائما يعرف أكثر من الشخصية، ولاسيما في السرد الذاتي ـ شيء آخر ذو أهمية بالغة.

أما النمط الثالث وهو التبئير الخارجي: فهناك المأوى البؤري خارج الشخصية، كأنه توجد كاميرا أو وعي غير محدد في مكان من الحكاية فهذا الوعي يكون عاجزا عن معرفة داخل الأشياء أو الشخصيات فيسجّل المظاهر الخارجية (مجموعة مؤلفين، ١٩٨٩: ١١٤ و١١٥) أما الرؤية في السيرة الذاتية فهي رؤية تجمع بين النمطين هما الرؤية من الخلف والرؤية المصاحبة (التبئير الداخلي)، والتبئير الخارجي قلّما نجده في السيرة الذاتية لأن المؤلف (=السارد) يكتب تجربة حياته فيبرم مع القارئ الميثاق السيرذاتي فلايستطيع أن يخفي نفسه كسارد خلف عين الكاميرا فدائما هو موجود، إلا أنه يستطيع أن يظهر قدرته في تطبيق صوت السارد وصوت الشخصية بالتبئير على الشخصية المركزية (=التبئير الداخلي)، عندما يضيّق المسافة بين الذات الساردة والذات الموضوع (=الشخصية المركزية التي عاشت التجربة) والسارد يتظاهر بأنه لايعرف أكثر من معرفة الشخصية بالأحداث والمشاهدات ونقول «يتظاهر» لأننا نعلم أن الحكاية تسبق السرد أو زمن وقوع الأحداث يسبق زمن الكتابة، فالسرد استرجاع والكاتب قد عاش التجربة في زمن بعيد وهو يكتب في الزمن الحاضر فيعي بالأحداث ويدركها. فالسير الذاتية العربية خاصة وغير العربية عامة لاتمثّل هذا التطابق بشكل مستمرّ، لأن التبئير الداخلي ليس ثابتاً. فالمفارقة الزمنية الواسعة بين زمن الكتابة وزمن التجربة توسّع الهوة بين الشخصية المجرّبة وبين السارد الذي يروي الأحداث التي عاشتها الشخصية بفعل التذكّر. فإذا أدخل السارد وعيه الراهن في سرده للأحداث التي جرت للشخصية فقد فارق بين صوته وصوت الشخصية وإذا سمح للشخصية بأن ترى بعينها فهو يجعل نفسه مندمجاً مع الشخصية. إلا أن النقطة الهامة في السيرة الذاتية هي أن التبئير يتراوح بين التبئير الداخلي والصفر، فيتداخل صوت السارد وصوت الشخصية أو تتسع الرؤية من المصاحبة إلى

الخلف وما جدير بأن نعرف هو أن هذا التحويل من تبئير إلى آخر ليس ثابتاً على مدى عمل أدبي بأكمله، بل كما يقول جيرار جينيت يشتمل على مقطع سرديٍّ قصير (١٩٩٧: ٢٠٣).

وليس عديم الصلة بمجال التبئير في السيرة الذاتية كون خطاب السارد خطاباً أيديولوجياً؛ فالكاتب وإن تطابق بين صوت السارد وصوت الشخصية إلا أن السارد لايزال يعكس أيديولوجيته وهذا المفهوم يشتدّ في السيرة الذاتية لأن أساسها وما يدفع إلى كتابتها هو التبرير للذات وهذا التبرير لايستطيع أن يكون محايداً أو موضوعياً لأن المترجم لحياته لايكتبها إلا عندما أحسّ بضرورة لها فلحظة الكتابة بكلّ ظروفها وأسبابها تؤثّر في السرد الاسترجاعي أكبرَ تأثيرٍ. فكثيرا ما تصبح دراسة هذه الأحداث واستخراج الدروس منها ذات أهمية أكثر من الأحداث نفسها، فالسيرة الذاتية إعادة قراءة الحياة بكل تجاربها التي عاشتها الشخصية وهذه التجارب حدثت مرة دون الوعي بها والتعليق عليها عند الوقوع، لكنها عندما تعاد قراءتها تعلَّق عليها وتفسَّر بالأيديولوجية التي لم يكن يمتلكها الكاتب في بداية حياته فتختلف حتما رؤية السارد عن رؤية الشخصية.

التطابق بين الشخصية المركزية والسارد في حياتي لأحمد أمين

كان أحمد أمين في الثامنة والستين من عمره حين قرّر أن يكتب حياته وإن يستعيدها متأملاً مغزى الرحلة ومعناها، فشعر بقرب النهاية فانتابته رغبة استعادة كل شيء لتأمله، خصوصاً بعد مجموعة متتابعة من الأحداث الصادمة التي تضع الوعي في مواجهة نفسه، ومن هذه الأحداث التي عاناها أحمد أمين: ابتعاد الكثيرين من حوله بعد أن لم يعد له منصب ينفع أو يضرّ، والتدهور الحادّ في عينيه اللتين ظلتا نافذته على الكتب، والجلطة التي أسلمته إلى شلل نصفي لم تذهب آثاره إلا بعد شهور مريرة، وكلها أحداث تترك الذات في مواجهة النهاية التي لاتقاومها إلا بالكتابة. هو من المترجمين لذواتهم الذين يبرمون ميثاقهم السيرذاتي بالوضوح التام فلايبقى مكاناً للشك في جنس العمل الأدبي، ها هو يقول: «وترددت.. في نشره، ما للناس و«حياتي»؟ لست بالسياسي العظيم، ولا ذي المنصب الخطير، الذي إذا نشر مذكراته، أو ترجم لحياته، أبان عن غوامض لم تعرف... ولا أنا بالمغامر الذي استكشف مجهولاً من حقائق العالم، فحاول وصفه

وأضاف ثروة إلى العلم... ولا أنا بالزعيم المصلح المجاهد... فهو يروي أحداثه لتكون عبرة، وينشر مذكراته لتكون درساً. لست بشيء من ذلك ولا قريب من ذلك، ففيمَ أنشر «حياتي»؟» (أمين، ١٩٥٠: ٨). ثم هو يواصل: «فلماذا.. لاأؤرخ «حياتي» لعلها تصور جانباً من جوانب جيلنا، وتصف نمطاً من أنماط حياتنا. ولعلها تفيد اليوم قارئاً، وتعين غداً مؤرخاً. فقد عنيت أن أصف ما حولي مؤثراً في نفسي، ونفسي متأثرة بما حولي. نبتت عندي فكرة تاريخ حياتي، منذ أول عهد شبابي، فقد رأيتني أدون مذكرات يومية عن رحلاتي، وعن حياتي في الأسرة وأيام زواجي... ثم نمت الفكرة وشغلت بالي في العام الماضي، فكنت أعصر ذاكرتي لأستقطر منها ما اختزنته من أيام طفولتي إلى شيخوختي، وكلما ذكرت حادثة دوّنتها في ايجاز ومن غير ترتيب فلمّا فرغت من ذلك ضممته إلى مذكراتي اليومية، ثم عمدت في الأشهر القريبة إلى ترتيبه وكتابته من جديد على النحو الذي يراه القارئ، من غير تصنع ولا تأنق» (المصدر نفسه، ١٩٥٠: ٩).

يضطلع ضمير المتكلم بمهمة السرد في **حياتي** ويحيل إلى الشخصية الرئيسية هو مرجع الكلام أو موضوع السرد إلا أن التطابق من حيث الضمير الشخصي بين البطل وهو أما طفل أو شابّ أو شيخ، والسارد وهو رجل ناضج في سن تتجاوز الستين فيروي هذه القصة بعد عشرات السنين يعرف كل ملابسات الحدث ـ «تطابق لاينبغي أن يحجب الاختلاف في الوظيفة، والاختلاف في الخبر. إن السارد يكاد دائما يعلم أكثر من البطل، حتى ولو كان هو البطل» (جينيت، ١٩٩٧: ٢٠٥).

يبدأ الفصل الأول بالتبئير على الأنا الساردة التي تكتب في الزمن الحاضر:«ما أنا إلا نتيجة حتمية لكلّ ما مرّ عليّ وعلى آبائي من أحداث» (أمين، ١٩٥٠: ١٣). ثم يفسّر السارد هذا الحكم الذي أصدره على نفسيّته الحاضرة بعدّة براهين عقلية: «فالمادة لاتنعدم وكذلك المعاني... وكذلك الشأن في العواطف والمشاعر والأفكار والأخيلة، تبقى أبداً، وتعمل عملها أبداً، فكل ما يلقاه الإنسان من يوم ولادته، بل من يوم أن كان علقة، بل من يوم أن كان في دم آبائه، وكل ما يلقاه أثناء حياته، يستقرّ في قرارة نفسه، ويسكن في أعماق حسه» (المصدر نفسه: ١٣).

فهو يريد أن يثبت أن شخصية كل إنسان تكوّنها الوراثة من ناحية والبيئة من ناحية أخرى فكآبة إنسان وابتهاج آخر تتسبّب فيها حياتهما المختلفة وراثةً وبيئةً. فهذه البداية بهذه الرؤية المتّسعة للسارد العليم تدلّ على أنّ المؤلّف لم يتّخذ رؤية نامية مع تقدّم الزمن فتكونَ مصاحبة مع

الشخصية في سنّها المبكّرة ثم تتسعَ كلّما يكبر الطفل.

هل هذا يرجع إلى أن التفسير للمواقف وتبرير الذات وبالعبارة المختزلة الإيدئولوجيا أهمّ من تطابق الصوتين، السارد والشخصية، للمؤلف؟

يؤكّد المؤلف على أن الحادث الواحد يتبعه ردّان للفعل مختلفان لدى امرأين مختلفين جرّباه؛ «فالحادثة الواحدة يبكي منها إنسان ويضحك منها آخر؛ ولايبكي ولايضحك منها ثالث، كأوتار العود الواحد، يوقّع عليها كل فنان توقيعاً منفرداً لايساويه فيه أي فنان آخر» (المصدر نفسه: ١٤).

فالذات بكل انفراده به مأخذ اعتبار المؤلف وتبرير الذات برؤيته الحاضرة أو بوعيه الحاضر ما يقوم به الأنا الساردة المتلفّظة: «فأنا أروي من الأحداث ما تأثّرت به نفسي وأحكيها كما رأت عيني. وأترجمها بمقدار ما انفعل بها شعوري وفكري...» (المصدر نفسه: ١٤). فيمكن أن نقول إن الرؤية الشخصية للحدث أهمّ من الحدث الذي عاشه المؤلف.

أهمّ المفارقة الزمنية التي تتّسم بها السيرة الذاتية هي المفارقات الزمنية بين زمن الأحداث أو الحكاية، وزمن السرد أو الكتابة. ففي حين أنّ السارد يسرد أحداثاً في الزمن الماضي فإذا به يعود إلى الحاضر لتبرير موقف أو تفسير حادث أو اعادة بناء علاقة سببية بين الأحداث لم تكن موجودة حينما وقعت هذه الأحداث: «وهكذا ألاعيب القدر. ظلم صراف البلدة أخرج أبي من سمخراط وأسكنه القاهرة حيث ولدت وتعلمت، ولولا ذلك لنشأت فلاحاً مع الفلاحين أزرع وأقلع، ولكن تتوالد الأحداث توالداً عجيباً، فقد ينتج أعظم خير من أعظم شر كما ينتج أعظم شر من أعظم خير، ولا تستبين الأمور حتى يتم هذا التوالد ويظهر على مسرح الكون» (أمين، ١٩٥٠: ١٦).

إن الأحداث التي لم يعشها السارد تدخل في إطار المقامات السردية الداخلية التي يصبح فيها السارد مسروداً له والسارد في مثل هذه الحكايات الثانوية إما أن يكون من الشخصيات غير المركزية أو ليس سارداً محدداً؛ ربما لكونه كائناً جمعيّاً: «وأما أسرة أمي فأصلها على ما روي لي من «تلا» من أعمال المنوفية، ولاأدري أهجرتها كما هجرتها أسرة أبي فراراً من الظلم أو لشيء آخر» (المصدر نفسه: ١٧).

فالجملة الأولى تشتمل على خطاب السارد غير المحدد في الزمن الماضي يسترجع الأحداث

التي سبقت الحياة الشخصية للشخصية المركزية والجملة الثانية بالفعل المضارع خطاب أنا الساردة في الزمن الحاضر. فهنا البؤرتان أو الرؤيتان للسارد أي التبئير في درجة الصفر.

إن السارد في كل محكي يعرف أكثر من الشخصية وإن كان مطابقاً للشخصية إلا أن التبئير الداخلي على الشخصية وتضييق حقل رؤية السارد وتظاهره بأنه يعرف الأحداث في حدّ معرفة الشخصية ويدركها في حد إدراكها يعتبر في النصوص السردية عامة والسرد الذاتي خاصة احتراماً لجهل الشخصية التي يسمح بها السارد العليم أن تتطور أفكارها شيئاً فشيئاً. فعندما يتدخّل السارد في الأحداث التي لاتعرف بها الشخصية ـ وإن هذا يعدّ مشروعاً في السيرة الذاتية ـ فهذا يؤدّي إلى عدم تطابق صوت السارد وصوت الشخصية أو وعيهما معاً. هذا يعتبر تباعد الرؤيتين من حيث وجهة النظر (مجموعة مؤلفين، ١٩٨٩: ١٢٢).

ومثل هذه المفارقات البؤرية ليست قليلة في حياتي: «في حجرة في هذا البيت ولدت وكانت ولادتي في الساعة الخامسة صباحاً من أول أكتوبر سنة ١٨٨٦، وكأن هذا التاريخ كان إرهاصاً بأني سأكون مدرساً فأول أكتوبر عادة بدء افتتاح الدراسة وشاء الله أن أكون كذلك. فكنت مدرساً في مدرسة ابتدائية، ثم في مدرسة ثانوية ثم في عالية وكنت مدرساً لبنين وبنات، ومشايخ وأفندية» (أمين، ١٩٥٠: ١٩).

فكونه مدرساً في المدارس في مختلف المراحل الدراسية ولأناس من طبقات مختلفة يكوّن أحداثاً ستقوم الفصول الآتية عليها إلا أن السارد يسرد هذه الأحداث على سبيل الاستباق.

إن التتابع الزمني لايحترمه المؤلف في داخل الفصول فيقفز، وهو يحكي فترة الطفولة، مباشرة إلى فترة الشباب وثم يعود إلى الطفولة ففي حين أنه يحكي فقدان أنابيب الماء في البيوت يستبق حفرَ الحارة ومدّ الأنابيب ثم يسترجع الأحداث السابقة من جديد. فتشويش السرد وتهميش الزمن نعثر عليهما على مدى فصل واحد أو قل على مدى مقطع سردي قصير فها هو يصف الشعور الديني السائد في البيت ونظام الأبوّة القاسية فيبثّر السرد على وعي الشخصية تبئيراً داخلياً فتضيّق المسافة بين صوت السارد وصوت الشخصية: «ويغمر البيت الشعور الديني، فأبي يؤدّي الصلوات لأوقاتها ويكثر من قراءة القرآن صباحاً ومساءً ويصحو مع الفجر ليصلي ويبتهل، ويكثر من قراءة التفسير والحديث، ويكثر من ذكر الموت ويقلّل من قيمة الدنيا وزخرفها ويحكي حكايات

الصالحين وأعمالهم وعباداتهم، ويؤدّي الزكاة ويؤثر بها أقرباءه ويحجّ وتحجّ أمّه معه ـ ثم هو يربي أولاده تربية دينية فيوقظهم في الفجر ليصلوا ويراقبهم في أوقات الصلاة الأخرى ويسائلهم متى صلوا وأين صلوا» (أمين، ١٩٥٠: ٢٢).

إلى هنا يرى السارد الأحداث بعين الشخصية دون تدخّله المباشر الملموس حتى يُبعدَ المسافة بين الصوتين إلا أن السارد يفاجئ القارئ المفترض عندما يخاطبه ويحوّل الزمن من الماضي إلى الحاضر: «و على الجملة فأنت إذا فتحت باب بيتنا شممتَ منه رائحة الدين ساطعة زاكية» (المصدر نفسه: ٢٢).

فتحوّلت الرؤية من الرؤية المصاحبة إلى الرؤية من الخلف إلا أن التبئير في القسم الأول من المقطع وإن كان داخليّاً لايزال يحمل ايدئولوجية السارد فخطاب السارد «هو بدرجة أساسية خطاب تفسير وتبرير وبالتالي فهو خطاب ايدئولوجي بالضرورة. إن التلفّظ يعكس ايدئولوجية السارد وليس ايدئولوجية الشخصية المركزية موضوع السرد» (الباردي، ٢٠٠٥: ٨٣).

فالسرد وإن حمل الرؤية المصاحبة لايزال يحمل ايدئولوجية السارد فتبرير القيام بالعبادات من أجل التقليل من قيمة الدنيا، تبرير ايدئولوجي متخلّف عن الحدث. «الرّؤية في السّيرة الذّاتيّة يمكن أن تكون مصاحبة ولكن الإيديولوجيا متأخّرة دائماً. إن الأحداث تفسّر دائما برؤية إيديولوجيّة متأخّرة في الزّمن والتّبرير لايصاحب الفعل أو الحدث بل يتخلّف عنه، ذلك أنّ الوعي بالفعل ليس مصاحباً لزمن وقوعه في أغلب الأحيان» (المصدر نفسه: ٨٣).

تظلّ المفارقة الزمنية بين زمن الحكاية وزمن السرد لاتزال أكبر المفارقات الزمنية السائدة في السيرة؛ فبينما يسترجع السارد الأحداث الماضية فإذا يدخل في الزمن الحاضر ويحكي الأحداث التي تباشر مقام الكتابة أو مقام السرد، فالفصل الثالث يختمه المؤلف بالمقارنة بين الزمن الماضي بتخلّفه في الأبعاد المختلفة ونظام الأبوّة وبين الزمن الحاضر بتقدّمه واستبداد الأولاد في البيت. مثل هذه التحليلات التي يقوم بها السارد بثقافته الحاضرة ووعيه الحاضر الذين حصل عليهما بعد تجربة الحياة التي عاشتها الشخصية نشاهدها في غير موضع من السيرة؛ فالتبرير الإيدئولوجي مرتبط بزمن السرد لا بزمن التجربة؛ فالسارد برؤيته الإيدئولوجية هو الذي يهيمن على السيرة المنطلقة من البعد الإيدئولوجي. فيبدو أن المقارنة بين الجيلين اللذين جرّبهما المؤلف وشتّان بينهما هي الأيديولوجيا التي تبرّر الذات.

ليست السيرة تتّبع خيط مضبوط بين الفصول، فعندما تريد أن تجعل تلاحق الأحداث والتتابع الزمني ما يربط بين الفصول فإذا يبطل الفصل الرابع هذه القاعدة لتعلّق السرد بالزمن الحاضر مائة بالمئة. فالذات الساردة تنفصل عن الذات المجرّبة وتسرد الإيدئولوجية التي حصل عليها في زمن الكتابة فقِصَر النظر الذي ورثه المؤلف عن أمه وعدم صراعه الديني والتشكيك العقائدي بسبب رسوخ تعاليم البيت في شعوره اللاواعي وحزنه الدائم، هذه كلها كوّنت ملامح هذه الشخصية وراثة وبيئةً. هذا الفصل من الفصول التي لانجد لوعي الشخصية أثراً فيه أو قل ليست التجربة الحياتية الخاصة موضع اهتمام السارد بل الدروس التي يستخرجها السارد العليم منها هي التي يدعوالسارد القارئَ المفترض إلى العناية بها؛ فالسارد والقارئ والمؤلف، هي الأطراف الثلاثة في هذا الفصل. يخاطب السارد دائما هذا القارئ: «فإن رأيت فيّ إفراطاً في جانب الجدّ وتفريطاً معيباً في جانب المرح... فاعلم أن ذلك كله صدى لتعاليم البيت ومبادئه» (أمين، ١٩٥٠: ٢٦).

فيبدو أن صوت السارد هو الذي يطفح على صوت الشخصية والرؤية الإيدئولوجية هي منطلق السرد الذاتي أي التجربة الحياتية ليست ذات قيمة في حدّ ذاتها بل تكتسب قيمتها من الوعي الثقافي الذي أنتجته.

للطريقة التي خضع لها تتابع الفصول في حياتي يمكن أن نقول: بغض النظر عن تشويش السرد وتهشيم الزمن اللذين هما طابع السيرة الذاتية «حياتي»، إن المؤلف حاول أن يربط البعض بالبعض بالخيط الفكري والتتابع الزمني للأحداث الهامة أو الفترات الحياتية التي عاشتها الشخصية من الطفولة مروراً بالشباب إلى الزمن الحاضر أي سنّ الكهولة للمؤلف.

فالتتابع الخطي للزمن لايحترمه المؤلف إلا بترتيب المراحل الحياتية والأحداث الهامّة التي صادفت الشخصية طوال هذه المراحل، فبعد هذا الترتيب الزمني في المستوى الكبير ثمّة مفارقات زمنية تهشّم الزمن وقوامها الاستطرادات الكثيرة فحديث يجذب حديثاً آخر، وتذكّر حدث في زمن بعيد في الماضي يذكّر حدثاً آخر في الزمن الحاضر أو قريباً منه. مثل هذه الاستطرادات تؤدّي إلى المفارقات الزمنية من ناحية وإلى تحويل الرؤية من جهة أخرى، خاصة إذا كان السارد لايزال يسرد المراحل المبكّرة من الحياة أي الطفولة. هذه المرحلة من الحياة التي أتاحت روّاد علم النفس كفرويد مجالاً واسعاً للتنظير بإمكانها أن تظهر قدرة الكاتب السيرذاتي على التطابق بين الشخصية

والسارد وأهميّة هذه المقدرة تنبعث من الهوّة الواسعة بين الشخصية والسارد وعياً وزمناً. فهل السارد يستطيع أن يغضّ النظر عن معلوماته الكثيرة ويتيح للشخصية الفرصة لرؤية الأحداث بعينها وحدها؟ والفصل الخامس لحياتي حلبة السباق بين الشخصية وهي في سن مبكرة والسارد وهو تجاوز الستين، فهل ينتصر وعي الشخصية أو وعي السارد؟ أحداث الطفولة تروى برؤية مَن؟

قبل أن نجيب عن هذه الأسئلة جدير بالذكر أنّ أَقدَمَ الأحداث في حياة أية شخصية ربما لا مجال لتثبيتها إلا بالذاكرة، نعم! السيرة الذاتية هي أساساً أدب الذاكرة وفعل السرد في هذا الجنس السردي فعل تذكّر إلا أن الأحداث التي تمرّ بها الشخصية بعد هذه الفترة قد تثبّت في المذكّرات أو اليوميات أو الصور الفتوغرافية إلا أن الذاكرة لعلّها الوسيلة الوحيدة لبقاء أحداث الطفولة ولذلك قبل البدء بسرد الأحداث من هذه الفترة أكّد السارد على الوسيلة المحتفظة بها: «عصرتُ ذاكرتي لأذكر أقدم أحداث طفولتي فذكرت منها ثلاثة...» (أمين، ١٩٥٠: ٢٩).

ثم يسرد الحدث الأول: «أنا في الرابعة من عمري خرجت من حارتي فوجدت بناء وله باب مفتوح فدخلته، كان هذا البناء «جبّاسة» رأيت فيها عجباً، ثور كبير عُلِّقت على عنقه خشبة وربطت هذه الخشبة في أسطوانة من الحديد كبيرة، فإذا الثور دار دارت الحديدة وقد وضع تحت الحجر حجر أبيض إذا دارت عليه طحنته فكان جبساً» (المصدر نفسه: ٢٩).

فقد أفلح السارد في تضييق حقل الرؤية فقد بُئِّر السرد على الشخصية وهي في سن الرابعة. فكل ميزات التبئير الداخلي توجد في هذا المقطع السردي؛ الشخصية البؤرية لم توصف وأفكارها أو ملاحظاتها لم‌تحلّل من جانب السارد. فقد اكتفى السارد بوصف ما رأته الشخصية. إلا أن مثل هذا التطابق بين الرؤيتين أو الصوتين قلّما يطول فما إن تمّ التطابق حتى يرى السارد الكلي معرفة الأحداث من الخلف بوعيه الحاضر: «أعجبني هذا المنظر، والناس، وبخاصة الأطفال . تعجبهم الحركة أكثر مما يعجبهم السكون، فلعبة القطار إذا كان يجري «بزنبلك» خير من لعبة القطار الساكن» (أمين، ١٩٥٠: ٢٩). ويواصل السارد مثل هذه التحليلات الفلسفية ثم يبئّر مرة أخرى على الشخصية: «ثور يتحرك ويدور فتتحرك معه الأسطوانة الحديدية، وحجر جامد يتحول إلى دقيق ناعم» (المصدر نفسه: ١٩). هذا من أقل أو قل من أندر المواضع التي توحي بتقلّص الهوّة بين الزمنين، زمن السرد وزمن التجربة بتوظيف السارد الأفعال المضارعة حتى يوهم

بأن مقامه السردي متزامن مع الحدث وهو مجرد إيهام لأننا نعلم أن الحكاية التي تضمّ الأحداث قد سبقت السرد، والسارد يسترجع الأحداث إلا أن أسلوب الايهام هذا يؤدّي إلى رؤية الأشياء من وجهة نظر الشخصية البؤرية. هكذا يروي السارد الأحداث البعيدة في الزمن من وجهة نظر الشخصية ثم تحوَّل الرؤية إلى السارد فقد يعود إلى التبئير الداخلي أو لا، إلا أن تداخل الأصوات أو التراوح بين الرؤى تشمل هذا الطور من الحياة، رغم ذلك بإمكاننا أن نقول إن الكاتب قد نجح إلى حد ما في تضييق حقل الرؤية وهو يروي أحداث الطفولة حتى تتطابق الذات الموضوع والذات الساردة. إلا أن الاتساع البطيء من الرؤية المصاحبة إلى الرؤية من الخلف بنموّ الوعي طوال مراحل الحياة ـ كما نجد هذه الظاهرة عند بعض الكتّاب كحنا مينه في ثلاثيته ـ لا نجده في حياتي. فدخل السارد في السيرة بوعيه الحاضر عندما وصف ملامحه الفيزيولوجية: «نظر مرة إلى رأسي أستاذ جامعي في علم الجغرافيا وحدّق فيه ثم قال: هل أنت مصري صميم؟ قلت: فيما أعتقد، ولم هذا السؤال؟ قال إن رأسك، كما يدلّ عليه علم السلالات، رأس كرديّ. ولست أعلم من أين أتتني هذه الكردية» (المصدر نفسه: ١٥). ثم استرجع الأحداث ما قبل الولادة، ثم روى حدث الولادة وبعد ذلك روى الطفولة بالرؤية المصاحبة حينا وبالرؤية من الخلف حيناً آخر. فلم تتّسع الرؤية شيئاً فشيئاً بتقدّم الزمن حتى يغيّر السارد وضعه من وضع المطابقة بين الذات المتكلمة والذات الموضوع إلى وضع المفارقة والتباعد. فهذا يرجع إلى أن السارد هو الذي يسيطر دائماً في السرد.

توجد في حياتي بعض فصول يمكن أن نطلق عليه فصل هيمنة السارد لأننا لا نسمع فيه إلا صوته ولانرى الأحداث إلا بوعي المثقّف الذي يحلّل الأحداث تحليلاً ايدئولوجيّاً؛ فالفصل السادس أحد هذه الفصول؛ يصف السارد الحارةَ بكل ما فيها من الناس الذين ينتمون إلى الطبقات العليا، الوسطى والدنيا ولايوجد ديموقراطيين إلا الأطفال الذين لايهتمّون بالاختلاف الطبقي، فيتلاعبون دون اعتبار مثل هذه الخلافات. عندما يصف السارد . ونقول إنه **يصف** ولا **يسرد** لأن حركة السرد الرئيسي المختصّ بحياة الشخصية المركزية تتعرّض للوقفة . الحياة العامّة الشعبية المبتعدة عن الحياة الخاصة للشخصية المركزية لايرى الأشياء والمواقف إلا برؤية السارد الذي وجد مجالاً لتقديم موقفه الإيدئولوجي واستراتيجيته الوجودية في زمن الحاضر. مثل هذه

الاسترجاعات التي تدخل بعضها في إطار الاسترجاعات الداخلية وغيريّة القصة التي تتعلّق بالشخصيات القريبة من السارد والبعض تتّسع حتى تصل إلى الأحداث العامّة التي لم يعشها السارد . يطلق عليها الاسترجاعات الخارجية . مثل هذه الاسترجاعات إن دلّت على شيء فتدلّ على هاجس كاتب السيرة الذاتية الذي يحاول أن يوجد تواصلاً بين الحياة الخاصة والحياة العامة حتى يكتسب للسيرة الذاتية المشروعيةَ التاريخية، «فما من حياة خارج سياق التاريخ تستحقّ أن تروى وإن تقرأ» (الباردي، ٢٠٠٥: ٧٣).

ليس أسلوب الكاتب في توظيف البؤرتين السرديتين الاتّساع من الداخلي إلى الصفر بل تتزاوج البؤرتان وتتقاطعان؛ فقد نجد في مقطع سردي واحد هذا التغيير مرّات عديدة: «ها أنا في سن الرابعة عشرة تقريباً، يلبسني أبي القباء والجبّة والعمة والمركوب بدل البدلة والطربوش والجزمة، ويكون منظري غريباً على من رآني في الحارة أو الشارع، فقد عهدوا أن العمامة لايلبسها إلا الشاب الكبير أو الشيخ الوقور أما الصغير مثلي فإنما يلبس طربوشاً أو طاقية، ولذلك كانوا كثيراً ما يتضاحكون عليّ فأحسّ ضيقاً أو خجلاً أو أتلمّس الحارات الخالية من الناس لأمرّ بها: والمصيبة الكبرى كانت حين يراني من كان معي في المدرسة، فقد كان يظنّ أني مسخت مسخاً وتبدّيت بعد الحضارة، وكأن الذي يربط بيني وبينهم هو وحدة لبسي ولبسهم لا طفولتي وطفولتهم، ولا زمالتي وزمالتهم، فنفروا مني مع حنيني إليهم، وسرعان ما انقطعت الصلة بيني وبينهم، فانقبض صدري لأني فقدت أصدقائي القدامى ولم أستعض عنهم أصدقاء جدداً، فكنت كالفرع قطع من شجرته أو الشاة عزلت عن قطيعها، أو الغريب في بلد غير بلده. وتضرعت إلى أبي أن يعيدني إلى مدرستي فلم يسمع، وإن يعفيني من العمة فلم يقبل، وما آلمني أني أحسست العمامة تقيدني فلا أستطيع أن أجري كما يجري الأطفال ولا أمرح كما يمرح الفتيان، فشخت قبل الأوان، والطفل إذا تشايخ كالشيخ إذا تصابى كلا المنظرين ثقيل بغيض، كمن يضحك في مأتم أو يبكي في عرس» (أمين، ١٩٥٠: ٥١).

فعندما يتحدث الكاتب عن كيفية ذهابه إلى الأزهر في مستوى الحدث الفعلي أو القولي نحن إزاء رؤية مصاحبة لأن السارد يرى بعين ذاته المجرّبة ولكن عندما يعلّق على الحدث ويأتي بالبراهين الفلسفية والتشابيه الأدبية نصبح إزاء رؤيته من الخلف، إذ أن هذا التعليق كلام السارد الذي

حصل عليه بعد تجاوز مرحلة الطفولة.يظهر السارد من حين إلى حين ايدئولوجيته السياسية العقلية التابعة للشيخ محمد عبده التي تعتقد بالإصلاح الداخلي للشعب؛ فالاستقلال يأتي تلو الإصلاح إلا أن هذه الفكرة الإيدئولوجية ليست أقوى إلى حدّ تتفوّق على النزعة الخصوصية للسيرة. تختلف اليوميات والسيرة الذاتية بعضها عن بعض في المساحة الزمنية التي تفصل بين زمن الكتابة وزمن التجربة، تكون هذه المساحة في السيرة الذاتية أوسع منها في اليوميات، وعندما تقترب المسافة الزمنية بين اللحظتين، الكتابة والتجربة، فتضيّق المسافة بين الرؤيتين فما يسجّله السارد في يوم كذا هو الذي جرّبته الشخصية في اليوم ذاته، فما أقرب الوعيين وما أضيق المسافة بين البؤرتين فيكاد أن تنطبقا. فاليوميات من الوسائل التي يستعين بها المؤلف لتنشيط الذاكرة في استرجاع الأحداث التي عاشها في الفصل السادسعشر الذي يقوم معظمه على هذا الشكل من أشكال أدب الذات. مع أن السارد من بداية السيرة يعلن هيمنته وفكرة تأثير التربية الأسرية في شخصية الطفل ومرافقتها إياه طوال سنين حياته هي التي تغطّي المراحل المبكّرة من السيرة، فقلّما نجد تطابقاً بين الذات الساردة والذات المجرّبة للحياة، إلّا أن وعي الشخصية بنموّه شيئاً فشيئاً ينمحي فوعي السارد هو الذي يعبر السرد من مصفاته أي أنّ الأحداث عندما تروى فلا تروى بتضييق حقل رؤيتها فالمعلومات تُسرَد في عملية اللاانتقاء برؤية السارد العليم من الخلف فكأنك عندما تستمع إلى السارد تجده ذا وعي مليء بالمعلومات السياسية، والثقافية، والدينية، والاجتماعية، والفلسفية، والنفسية، فعندما تروى حادثة قلّما تتخلّص من نقدها باتجاه من الاتجاهات السابقة، في حين أن الحادثة لم تكن تراها الشخصية عند الوقوع بوعي السارد في زمن الكتابة؛ فعلى سبيل المثال عندما يروي السارد الجوّ الهادئ السائد في حياته الزوجية معظم الأحيان وتعرّضها لعاصفة النزاع أحياناً يأتي بكثير من الأسباب التربوية والنفسية؛ فالشخصية المركزية ـ وهو الزوج آنئذٍ ـ لمتعش هذه التجارب بمثل هذه التعليقات؛ إذاً السرد غير مبأَّر أي السارد يرى الأحداث ويدركها بوعيه الذي تجاوز وعي الشخصية في زمن التجربة.

النتيجة

مما يفصل بين السيرة الذاتية والأجناس الأدبية الأخرى هو الميثاق السيرذاتي أو التطابق بين

الأطراف الثلاثة الرئيسة في السيرة الذاتية وهي: المؤلف، والشخصية، والسارد. وهذا يصل إليه الكاتب بطرق مباشرة أو غير مباشرة كضمير المتكلم أو ذكر العنوان على الغلاف وكلاهما استخدمهما أحمد أمين. إلا أن التطابق السيرذاتي شيء والتطابق الرؤيوي أو الصوتي، الذي تعنى به الدراسة شيءٌ آخر. فيمكن أن يكون السارد ينطق بضمير المتكلم إلا أنه تتباعد رؤية السارد عن الشخصية المحورية من أجل المفارقة الزمنية بين زمن التجربة وزمن الكتابة وقلّما نجح من الكتّاب السيرذاتيين الذي استطاع أن يضيّق المسافة بين البؤرتين السرديتين وإن يطابق بينهما، وأحمد أمين لم يكن من هؤلاء؛ فهو قلّما أو قل نادراً ما استطاع أن يقرّب الهوة بين الشخصية المركزية، طوال مختلف مراحل الحياة، والسارد. والسبب الرئيسي لمثل هذه المفارقة بين الرؤيتين أو البؤرتين السرديتين يرجع إلى أن السارد دائما كان ينظر إلى الأحداث من رؤيته المنطلقة من الخطاب التفسيري والأيديولوجي، فصوتُ السارد هو الذي يهيمن في السيرة الذاتية.

المصادر

آرمن، سيد ابراهيم (١٣٩٠ش)، «السيرة الذاتية وملامحها في الأدب العربي المعاصر»، **فصلية دراسات الأدب المعاصر**، السنة الثالثة، العدد الحادي عشر، صص٢٣-٩.

أمين، أحمد (١٩٥٠)، **حياتي**، القاهرة، لامک: لانا.

الباردي، محمد (٢٠٠٥)، **عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

بحراوي، حسن (١٩٨٤)، «أنساق الميثاق الأوطوبيوغرافي: السيرة الذاتية بالمغرب نموذجاً»، **مجلة آفاق**، المغرب، العدد ٣-٤.

جينيت، جيرار (١٩٩٧)، **خطاب الحكاية؛ بحث في المنهج**، مترجم: محمد معتصم، وعبدالجليل الأزدي، وعمر حلي، ط٢، لامک: المجلس الأعلى للثقافة.

حسين، طه (١٩٩٢)، **الأيام**. ط١، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر.

لوجون، فيليب (١٩٩٤)، **السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي**، مترجم: عمر حلي، بيروت: المركز الثقافي العربي.

مجموعة مؤلفين (جيرا جينيت، واين بوث، بوريس أوسبنسكي، فرانسواز ف، روسوم غيون، كريستيان أنجلي، جان إيرمان (١٩٨٩)، **نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير**، مترجم: ناجي مصطفى، ط١، لامک: منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي.

مرتاض، عبدالملك (١٩٩٨)، **في نظرية الرواية؛ بحث في تقنيات السرد**، الكويت: عالم المعرفة.

هياس، خليل شكري (٢٠٠٠)، **سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى وشارع الأمير**، ت. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

http://www.awu.sy/archive/book/01/study103/01-h-s/book01-sd002.htm

مطابقت بین راوی، مؤلف، و شخصیتِ محوری در زندگی‌نامه‌خودنوشت «حیاتی» اثر احمد امین

سید ابراهیم آرمن*[1]، مریم اکبری موسی‌آبادی[2]

۱. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه آزاد اسلامی واحد کرج

۲. استادیار گروه زبان و ادبیات فارسی دانشگاه ارومیه

چکیده

یکی از موضوعات چالش‌برانگیز در زندگی‌نامه‌خودنوشت این است که آیا نویسنده توانسته‌است فاصلهٔ میان خودش، راوی و شخصیتِ محوری را به حداقل برساند و به عبارت دقیق‌تر آیا توانسته‌است میان این سه عنصر تطابق ایجاد کند. مسلماً ذهنیتِ اکنون نویسنده نسبت به وقایعی که سال‌ها از رخ دادنشان سپری شده‌است با ذهنیت او هم‌زمان با رخ دادن وقایع بسیار تفاوت دارد و همین موضوع است که می‌تواند مهارت خلاقانهٔ نویسنده را به بوتهٔ آزمایش بگذارد. در این مقاله این موضوع را در زندگی‌نامه‌خودنوشت **حیاتی**، اثر احمد امین بررسی می‌کنیم. یافته‌ها نشان می‌دهد ازآنجاکه عوامل سازندهٔ شخصیت فعلی نویسنده برای او اهمیت بیشتری دارند، وی توجه خود را بیشتر به تفسیر وقایع و تأثیرشان در زندگی فعلی‌اش معطوف کرده‌است تا آنکه از زاویهٔ دید شخصیت به شرح وقایع بپردازد، و کمتر موفق به کم کردن فاصله میان دو نظرگاه راوی و شخصیت شده‌است. با توجه به اینکه مبحث زاویهٔ دید به عنوان عنصر مهم داستانی در این مجال بسیار یاریگر است، نظریات ژرار ژنت را سنگ بنای کار خود قرار داده‌ایم.

کلیدواژه‌ها: زندگی‌نامه‌خودنوشت؛ راوی؛ شخصیتِ محوری؛ منشور خودنگاشتی؛ زاویهٔ دید؛ أحمد أمین؛ حیاتی.

*نویسندهٔ مسئول: Shams1516@yahoo.com